إضاءة

تتفنّن ألمانيا في تسويغ الإبادة في غزّة، فتارة تلجأ إلى حجج اقتصادية واهية، وتارة أخرى إلى تاريخها الدموي لتبرير دعمها المطلق للعدوان، بدعوى أنّها تُحارب «معاداة السامية»، لكنها في واقع الأمر تحارب أي مظهر من مظاهر التضامن مع فلسطين

نجم الدين خلف الله

تكمن المفارقة الكبرى التي أرّقت المفكّرين خلال عقود في التناقض الصارخ بين الفلسفة العقلانية - الأخلاقية التي انتقد إيمانويل كانط عقلها المحض ومقولاته الصورية، وبين فظاعات التاريخ التي ارتُكبت أثناء الحرب العالمية الثانية فتجاوزت كلّ حدّ معقول وكلّ حسّ أخلاقي مأمول.

دخلت ألمانيا، بعد ذلك، في حال من تأنيب الضمير على ما صدر من هيئاتها السياسية والعسكرية، وانطلقت مسار «توبة جماعية» عبّرت عنها بمساندة مطلقة لليهود، بعد أن أذاقتهم هي بذاتها الأمرّين، لتغدو هذه المساندة عقيدةً والخوضَ في أسبابها ومسوّغاتها محظوراً لا يجوز أن يُنتهك. بل أصبحت جزءاً من اللاّمفكّر فيه وما لا يجب التفكير فيه حتى لدى أكبر المثقّفين الذين يقدّسون حرّية الفكر ويدعون إلى عدم التقيّد بأيّ منظور مسبق، فضلاً عن العقائد الأيديولوجية الثقيلة.

وما إن وقعت أحداث السابع من تشرين الأوّل/ أكتوبر، حتّى سارعت ألمانيا إلى إظهار الولاء المطلق لـ«إسرائيل»، موفّرة لها غطاءً سياسياً ودعماً عسكرياً لا حدود لهما. وهو ما أعاد السؤال صريحاً: أين العقلانيّة في هذه المواقف؟ من هنا كان لا بدّ من تفكيك الحجج التي يقوم عليها هذا التصوّر وتحليل أسس خطابه.

في هذا التصوّر، تقوم الحجّة الأولى على مبدأ الذاكرة، ومفاده أنّ الشعب الألماني محكومٌ بعقدة اضطهاده لليهود، ولذلك فهو لا يريد اليوم أن يعود إلى تلك الحقبة المظلمة من تاريخه، وعليه أن يحارب كل نزعة «لاسامية» حتّى لا تتطوّر إلى مشاعر كراهية، فتتجسّد في أعمال عنف جديدة ضدّ اليهود. كما صار التضامن معهم بمثابة التكفير عن الذنب التاريخي والتوقّي من تكراره في المستقبل.

ويضيف المنظّرون لهذا المبدأ أنّ للذاكرة مساراتها ووظائفها وهي التي تُملي الوقوف ضدّ أيّ شبح لعودة جرائم النازية التي قد تنبثق من التضامن مع فلسطين. وغنيٌّ عن القول إنّ هذه السردية متهافتة، وهي تحمل بصمات الرؤية الإسرائيلية التي لا تبني على أيّ استدلال متين. وإلّا فما علاقة احتلال يجثم على أرضٍ فلسطين، منذ خمس وسبعين سنة، مع ما رافقه من حروب واضطهاد طاولت ملايين الفلسطينيين، وما حصل منذ الثامن من تشرين الأوّل/ أكتوبر من تقتيل وتهجير وتدمير لغزّة، بما ارتكبه الألمان في ماضيهم ضدّ يهود أوروبا؟ ثمّ ما ذنب فلسطينيي اليوم فيما اقترفته يدُ النازية أمس؟ أفلا يقول هؤلاء إنّ الغاية البعيدة هي منع تكرار جرائم الإبادة عموماً؟ فلماذا إذاً يشرّعون ارتكابها ضدّ الفلسطينيّين ولمْ يصمتوا أمام فظاعاتها، في حين أنّها لا تختلف عن مثيلاتها أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها وقبلها؟

تُعتبر الحجّة الثانية، وهي ذات طابع اقتصادي، هذه المساندة دَيْناً، تبادلاً خاضعاً لقوانين العرض والطلب والتسليم، مع إلحاح أصحابها على أنّ إعادة بناء ألمانيا اعتمد على أثرياء اليهود، فهُم الذين أوقفوا اقتصادها على قدميه بعد أن انهار بسبب الدمار الذي خلّفته الحرب العالمية. هذه الرؤية أحاديّة مضخّمة، تسعى إلى أن تفسّر نهضة الاقتصاد في هذا البلد فقط بالتضامن اليهودي وتربط ازدهاره حصراً بلوبياته ومجموعات ضغطه، في حين أنّ للاقتصاد عوامل متداخلة، بل لعلّه يُبنى أساساً على التسهيلات والامتيازات التي تحصّلت عليها ألمانيا من دول العالم الثالث في نهب مقدّع لمواردها، فضلاً عن تعاملاتها مع روسيا والصين وبلدان أفريقيا. ولذلك لا تعدو هذه المساندة أن تكون وهماً آخر يُباع في سوق التضليل، غايته إقناع العموم بأنّ موالاة «إسرائيل» مصلحة اقتصادية بحتة.

مقابل هذا، وفي إطار التفنّن في إيراد المسوغات، تلجأ السُّلطات الألمانية إلى «التاريخ»، هذه الهلامة الانفعالية المركّبة من خيالات وهواجس تسمّيها «الماضي»، من أجل تبرير التشدّد في محاربة ما تعتبره «معاداة للسامية» الذي هو، في حقيقته، تضامنٌ وتعاطف مع فلسطين وشعبها في وجه الدمار الشامل الذي تعرّضت له ولا تزال.

فقد اعتبرت هذه المساندة، حسب ما ورد على لسان المستشار الألماني أولاف شولتز «علّة الدولة» وسبب وجودها، أو ما صاغه روبرت هابك، نائب المستشار من حزب الخضر حين قال: «هذه مسؤولية تاريخية، على ألمانيا أن تضطلع بها بسبب مسؤوليتها عن المحرقة».

والغريب كيف يسوّغ لهذا التدمير الإسرائيلي للشعب الفلسطيني بالعودة إلى التاريخ الذي صار ذريعة تُستحضر بحسب الغايات والمصالح؟ ثمّ أليس هذا هو نفسه منطق الأحزاب الدينية المتشدّدة في كل الثقافات: الاتكاء على نموذج ماضوي ولّى وإجبار التاريخ الراهن على الاقتداء به؟ كذلك سارعت ألمانيا إلى الدفاع عن «إسرائيل» حين رفعت جنوب أفريقيا ضدّها دعوى الإبادة الجماعية في غزّة. وبعد يوم، ذكّرت ناميبيا بمجازر إبادة اقترفها الألمان في حقّ القبائل المحلّية. ولعلّ السؤال الضمني هنا: هل تشعر ألمانيا بالذنب تجاه ناميبيا؟

إذ يقتضي المنطق البسيط أن يتحمّل الألمان تبعات جرائمهم وليس غيرُهم، كما يقتضي ألّا تتكرّر هذه الفظاعات ضدّ أيّ شعب آخر من شعوب الأرض. ولا وجهَ للتشدّد في منعها ضدّ اليهود، والسماح بها، بل والتواطؤ فيها، ضدّ شعب فلسطين، كأنّه لا ينتمي إلى جنس البشر، وكأنّ إدانة الإبادة لا تصدق إلّا إذا طاولت اليهود، وأمّا إذا مسّت غيرهم من أبناء الحياة فلا حرج. وهو ما يكشف شعوراً بالمركزية الغربية المقيتة ومعها ضرورة الحفاظ على السكينة النفسية للضمير الألماني أو الأوروبي بقطع النظر عما سيكابده الفلسطينيون من دمار وتقتيل، وهذا وهم آخر من أوهام العظمة التي تُداعب المخيال الألماني وترى فيه أساساً للدولة وما هو في الحقيقة سوى استمرار للعقلية الاستعمارية التي لا تزال ترى في الآخر كائناً خارج التاريخ، لا يستحقّ أن يتمتّع بنفس شروط وجود الإنسان الأوروـ أميركي، ولا بنفس امتيازاته وحقوقه.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

النصّ الكامل
على الموقع الالكتروني

حين يسقط الفلاسفة في امتحان غزّة

أوهام المخيال الألماني

عناصر من الشرطة الألمانية يفضّون بوجه متظاهرين مؤيّدين للحقّ الفلسطيني، دوسلدورف، 30 كانون الأول/ ديسمبر 2023 (Getty)

> سردية ألمانية متهافتة تحمل بصمات الرواية الصهيونية
>
> ما ذنب فلسطينيّي اليوم في ما اقترفته يدُ النازية أمس؟

الامتناع عن التفكير

بينما يُنتظر من مفكّري ألمانيا وفلاسفتها أن يجابهوا مواقف بلادهم بخصوص القضيّة الفلسطينية، نجدهم يعملون على تسويغها وتسويغها، واقعين في فخاخ السردية الصهيونية وفي تلابيبات خطابها بكثير من التسليم الفكري الذي ينتقدونه لدى غيرهم، ومن ذلك يورغن هابرماس الذي يمتنع عن التفكير تماما حيث يتعلّق الأمر بالاحتلال الإسرائيلي، وهو الذي جاب القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية معتمداً على النقد ونقد النقد.

إطلالة

تمويه المصطلحات وتزييف جوهر اللغة

إبادة موازية

إبادة على البشر والحجر والشجر تجري في الميدان، تقابلها وتوازيها وتزامنها وتتطابق معها إبادةٌ على صعيد التوصيف والتحليل والإخبار اللغوي

باسم النبريص

الرأسمالية في أخر دوراتها استبدلت الواقعي بالرقمي. وعليه، ما عادت ضرورةُ العودة إلى أصل الأشياء، ولا حتّى إلى مسمّياتها الكلاسيكية. كل شيءٍ سائلٌ ويتدفّقُ عبر الشاشة فقط، حتّى أنّ الانهيار جفّت، ولم تعد صنو الماء، أو حتّى مرايا له. النقاء والصفاء والجمال، دوالّ بلا مدلولات.

الرأسمالية، اتّخذت البشر الملوّنين، بالتوازي مع إتخانها للغتها نفسها ولبشرها البيض أنفسهم. واليوم، كلّ العالم بات بلا لغات، لأنه فقير إلى الينابيع. حتّى الإله العمودي، أزيح على جنب، ولم يعد كتاباً مهمّاً بما فيه الكفاية، منذ قرنين على الأقل. ولهذا هجره الناس في الغرب، وانتهى زمن أن يكون له ذلك التأثير الكافي لتجديد الميتافيزيقا.

لقد غدت عظام تلك الميتافيزيقا القديمة مكاحل، بعد سيطرة شركة «ميتا» على عقول البشر. والآن، كل خوفي، بعد فقدان الجليل والجميل معاً، على خسارة حائطنا الأخير: ملكوت الشعْر. صار الشعر نوافل، وصار اللسان يرتعش حين يباغته السؤال: هل ما زال من الممكن العثور على صوت أصيل وطموح بما يكفي لتاليف قصائد حول الأسئلة الكبرى التي يعود إليها البشر دائما؟

زمان، كنّا قد عشنا هذا بكلّ حواسنا. كان العالم اثنين: خارجيا وداخليا. وبعد تطوّر البشرية، انتقل الخارجي إلى داخلنا، وامتزجا في سبيكة واحدة، ومن ذلك الامتزاج وُلدت جميع الحضارات والفنون. اليوم غدا العالم بنسختيه مفقوداً. لم تعد ثمة عوالم في داخلنا، فكيف على الأقل، ستُنتج الفنون؟

■■■

صحف أوروبا الكبرى، من إسبانيا إلى أيسلندا، تفعل أكثر بكثير من حذف الحقائق. إنّها تموّه المصطلحات وتزيّف جوهر اللغة، فتضع كل شيء يخصّنا، في عكس موضعه: في المكان القاتل. على بقايا صحة، وركّزت على منابر اليسار الفقيرة، فعلى الرغم من شوائب بعض أقلامها، مثل مساواة حركة حماس بقاتل شعبها، وشيوع النزعة الإنسانية فيها بدل السياسية، وعلى الرغم من قيامها بمراجعة غير محترمة لبعض حلقات القرن العشرين، إلا أنّها أهون، نوعاً ما.

> أثخنت الرأسمالية البشر الملوّنين كما فعلت بلغتها نفسها

إن بعض اليسار الأوروبي، من غير التروتسكيين (هؤلاء انقلبوا إلى صهاينة صحاح وأقحاح تماماً)، لا يعرف بعدُ مقدار الأهوال التي يستطيع عدونا ما فوق النازي اقترافها ضدّ مدنيّينا العزّل، تماماً مثلما لا يعرف هؤلاء بعد، ما يحدث للكبد عند الإقلاع عن الكحول، أو ما هي آثار الفيروس النووي للفكر الصهيوني.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

طفلة فلسطينية في «مستشفى الكويت» إثر إصابتها جرّاء غارة إسرائيلية على رفح، 25 كانون الثاني/ يناير 2024 (Getty)

مشاهدة

توثيق المدينة الفلسطينية قبل الاحتلال وبعده

ذاكرة غزّة بعدسة كيغام جغليان

> توثّق المخرجة الفلسطينية مروة طيبي في فيلمها سيرة صاحب أول استديو تصوير في غزّة، كما تقرأ حياة المدينة الاجتماعية من خلال أرشيف صوره

رام الله ـ العربي الجديد

ضمن سلسلة «مُصوّرو فلسطين» التي أنتجتها «الجزيرة الوثائقية» للإضاءة على إرث البلاد الفنّي، صدر بتوقيع المخرجة الفلسطينية مروة جبارة طيبي فيلمٌ بعنوان «مُصوّر غزّة الأول: كيغام جغليان» (2020). يدور العمل، الذي تعرضه «مؤسسة القطّان» في رام الله، عند السادسة من مساء الخامس عشر من شباط/ فبراير الجاري، حول كيغام جغليان، المُصوّر الأرمني الذي انتقل من القدس إلى غزّة عام 1945، ليفتتح فيها أوّل استوديو تصوير باسم «كيغام ستوديو».

يعرض الشريط (25 دقيقة) للتاريخ الغزّي من خلال أرشيف الفنّان المتنوّع، الذي يوثّق فيه نهضتها وجمال شواطئها، كما يستكشف المدينة بعدسته الحُرّة، ولأوّل مرة بعيداً عمّا رسمته كاميرا الاحتلال الإنكليزي من صورة نمطيّة عن الشعب الفلسطيني.

وتمثّل عدسة كيغام ذاكرة غزّة، راصدةً حركة الحياة اليومية بتفاصيلها في المدينة، وعارضةً وجهة النظر الفلسطينية لرؤية الأحداث. ويتتبع الفيلم رحلة المصوّر الفريدة، وكيف نجح في تحويل التقاط الصُّور الشخصية إلى مُمارسة شعبية، لا تحتكرها طبقة بعينها بل مُتاحة لجميع المواطنين، كأنّه ابن غزّة، بعد أن قدم إلى فلسطين مُهاجرا لاجئا.

يقول المصوّر الغزّي الشابّ يوسف ناتيل: «فوجئتُ بأنّ مدينتي غزّة كانت على هذه الشاكلة، ولولا أن كيغام صوّرها، فلن نعرف تاريخها ولا شكلها الحقيقي، لقد كان فيها مطار وسكّة حديد وكل مقوّمات المدينة المتّصلة بالعالم، على عكس المدينة المحاصرة اليوم». من ضيوف الشريط أيضاً، كيغام الحفيد الذي يحمل اسم جدّه، والذي تحدّث عن الإرث الغزّي الممتدّ في أجيال العائلة الجديدة رغم أنه تربّى وعاش في مصر. أمّا المُصوّر ناصر عليوة فيصف كيغام بأنه «الأب الروحي» للتصوير في غزّة، فمن خلاله تمّ التعرُّف إلى الأبعاد الجمالية لهذه المهنة وليس فقط الوظيفية. كذلك يحضر في الفيلم جامع أرشيف كيغام، المُصوّر مروان ترزي، الذي استشهد في الأيام الأولى للعدوان الإسرائيلي على غزّة. يتناول ترزي في حديثه العمائر والمباني المُهدّمة التي لم تعد موجودة إلّا في صور كيغام بالأبيض والأسود، وكيف وثّقت عدسة المصوّر الأرمني مشاهد من نكبة عام 1948. حديث ترزي هذا كان قبل العدوان البربري طبعاً، الأمر الذي يجعلنا نتساءل: ماذا تبقّى من أثر كيغام بعد أن قتل الاحتلال حارس تلك الصور ودمّر منزله، وقصف الاستديوهات التي تحتفظ بهذا الأرشيف النادر؟

يُذكر أنّ مروة جبارة طيبي، مخرجة وصحافية فلسطينية، حاصلة على ماجستير في السينما الوثائقية، وهي صاحبة خبرة كبيرة في مجال الإنتاج، عملت مع محطات تلفزيونية عديدة، كما عُرفت بتوثيقها الأدوار الريادية للنساء، وتتميّز بأفلامها الاستقصائية، ومن بينها: «حرب في ساحة المعركة» (2017) الذي يتناول استثمارات «إسرائيل» في تجارة الأسلحة، واستغلالها مجازر رواندا والبوسنة لزيادة البيع والأرباح، و«فستان العروس» (2019)، و«عباس 36» (2019).

> نقل بعدسته حداثة المدينة المبكّرة ومشاهد من نكبة عام 1948

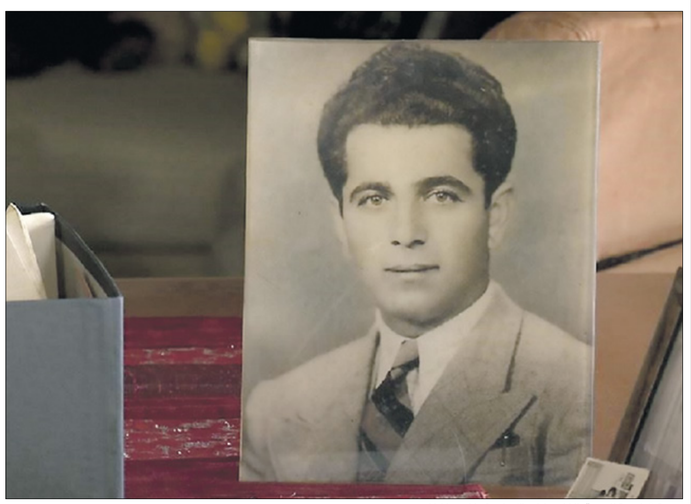
صورة شخصية للمصوّر الفلسطيني الأرمني كيغام جغليان

فعاليات

عند العاشرة من صباح غدٍ الخميس تنطلق فعاليات الدورة الثالثة من «معرض النجف الدُّولي للكتاب» في العراق، وتتواصل حتى الثامن عشر من الشهر الجاري. تحمل هذه الدورة شعار **من النجف إلى القدس**، كما تُخصّص ضمن برنامجها الثقافي سلسلة فعاليات وندوات حول نضال الشعب الفلسطيني وتاريخ القضية.

ضمن سلسلة ندوات «سقط القناع عن القناع» التي تُنظّمها «مكتبة تكوين» في الكويت العاصمة، تلتقي المُترجمة والكاتبة **إيمان اسعد** بالروائية الفلسطينية **عدنية شبلي** (الصورة) في حوارية بعنوان **حين نكفّ عن الكلام**، عند السابعة والنصف من مساء الأحد، الثامن عشر من شباط/ فبراير الجاري. تتناول صاحبة «تفصيل ثانوي» ثقافة الإلغاء الغربية التي تحاصر الكتابة عن فلسطين.

يُناقش «نادي عفكرة للكتاب» رواية **صباحات جنين** للروائية الفلسطينية الأميركية **سوزان أبو الهوى** (الصورة) عند الثالثة من مساء 25 الشهر الجاري في غاليري «موزاييك رومز» بلندن. يُشار إلى أن العمل الذي صدر بالإنكليزية عام 2006، ويروي بصوت نسوي نكبة عام 1948 آثار غضب الدوائر الصهيونية في الغرب.

تحت شعار **من صُور إلى غزّة: السينما تقاوم** تنعقد فعاليات النسخة الحادية عشرة من «مهرجان صُور السينمائي الدولي للأفلام القصيرة»، بين الرابع والعشرين والسادس والعشرين من الشهر الجاري، في «المسرح الوطني اللبناني: سينما ريفولي» بمدينة صور. يُشارك في هذه الدورة 35 فيلماً من 21 بلداً.